مساهمة الإيرانيين في ازدهار الصناعة المعجميّة في اللغة العربية (القاموس المحيط للفيروزآبادي نموذجاً)

أ.م. علي سعيداوي

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة بوعلي – همدان/ ايران

أ.م. جمال طالبي قرەقشلاقي

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة فرهنگيان – طهران/ إيران

Iranian involvement in Arabic lexicography Case study: vocabulary almohit Firoozabadi

Asst.Prof. Ali Saadawi

Arabic Department\ BuAli University- Hamdan\ Iran

Asst.Prof. Jamal Talebi Quraqallashi

Arabic Department\ Fahanghyan University- Tahran\ Iran

alisaidawi@yahoo.com

Abstract

In Islamic culture and civilization of Iranian involvement is limited to grammar and poetry and prose, but they were also involved in linguistics and lexicography culture Arab dictionary capable hands Khalil bin Ahmed Farahidi first writing in the second century AD, with the state of culture "Al Ain" knew. In the centuries that followed, especially the eighth century Iranian scholars such as He went into the dangerous areas and the rich culture of the Arabs provoked Alqamoos almohit surprises. The structure and material culture of many cultures before his vocabulary was superior. The importance of "Alqamoos almohit" The same thing is enough to know that this dictionary is the only dictionary that was translated into Latin in 1632 AD in Italy. This paper examines the role and participation of the Undhga,ajerlying Alqamoos almohit Persian dictionary Arabic writing addressed, and to express its most important features is applied. In addition to differences with others dictionaries as well. The most important findings can be pointed out Alqamoos almohit for being concise and correct bugs before your dictionaries and dictionaries of other systems offer superior vocabulary and verb Also on the dictionary "almohit environment" Bostani, and 'Resource Aqrb per Passover Arabic and Alshavared "Said Khoury affected Shrtoony Materia confirm the obvious presence and involvement and other features of Alqamoos almohit and Persian, and would know the show went on to Other languages and the influence of the native language is Persian..

Key words: language, lexicographical, Iran, Firoozabadi

الملخص:

لم تكن مساهمة الإيرانيين في الحضارة الإسلامية محصورة في العلوم النحوية وميدان النظم والنثر، بل تعدّت إلى المجالات اللغوية خصوصا كتابة القواميس والمعاجم اللغوية. ابتدأت كتابة القواميس اللغوية في العالم العربي في القرن الثاني للهجرة عندما وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) معجم العين. وفي القرن الثامن للهجرة نشاهد العلماء الإيرانيين قد خاضوا هذا الميدان. ومنهم الفيروزآبادي الذي خلص منه وهو يحمل إلينها قاموسا قيما فاق كل ما سبقه من القواميس. للتنويه على أهمية هذا الكتاب يكفي أن نقول أن «القاموس المحيط» هو المعجم الوحيد الذي اهتمّ به علماء الإفرنج وترجموه إلى اللغة اللاتينية في إيطاليا سنة 1632م. وفي هذا المقال قد ناقش المؤلف مساهمة الإيرانيين في صناعة المعاجم العربية. وقد ركز في هذه الدراسة على القاموس المحيط للفيروزآبادي. وهو يحاول أيضا أن يميط اللثام عن المميزات الخاصة لهذا الكتاب وما بينه وبين المعاجم التي تلته من فروق. وفي النهاية خلص إلى بعض النتائج، أهمّها: أنّ «القاموس المحيط» يفوق المعاجم الأخرى باختصاره واستدراك ما كان في المعاجم قبله، وبانتظام في الترتيب الداخلي للموادّ، والانتظام في علاج الصيغ، كما أنّه أثّر في المعاجم التي ألّفت في عصرنا الحديث مثل «محيط

المحيط» للبستاني، و «أقرب الموارد في فصح العربية والشّوارد» لسعيد الخوري الشرتوني. والحضور المكثّف للأعلام والمفردات الدّخيلة والمعرّبة من الفارسي من ميزات القاموس المحيط وذلك يدلّ على أنّ الفيروزآبادى قد تأثّر بلغته الأمّ خاصّة عندما يذكر أصل المفردات المعربّة، وهذا يميّزه عما كان قبله من المعاجم.

الكلمات الرئيسة: اللغة، صناعة القاموس، الإيرانيون، الفيروزآبادي.

المقدمة

فتح العرب المسلمون بلاد فارس سنة 21 للهجرة، وأخذ الفارسيون بتعلّم اللغة العربية منذ إسلامهم ولم تمضِ مدّة طويلة حتّى بسطت هذه اللغة سلطانها على جميع أنحاء البلاد الفارسية السابقة. وامتد هذا السطان حتّى نهاية القرن السّابع الهجري.

استوطن بعض العرب – بعد الفتح – بعض المدن الفارسية كما أنّ بعض الفرس هاجروا إلى الجزيرة العربية والعراق واحتكوا بسكانهما فبرز منهم أدباء وشعراء وكتّاب ومورّخون وعلماء في شتى العلوم. وقد أمضى كثير منهم سنوات عديدة بين الأعراب في البادية فأخذوا منهم اللغة والشعر و... (انظر: ايرواني زاده، وشاملي، 1388، ص 3.1).

لم ينظر الفارسيون إلى اللغة العربية نظرتهم إلى اللغات الأجنبية بل كانوا يلحظونها باحترام وتبجيل. لأنّها تمثّل لغة القرآن والديانة الاسلامية. واللافت للنظر أنّ الإيرانيين يشكلون إحدى دعائم الحضارة الإسلامية، وكلّ يعترف على فضلهم العظيم الذي قدّموه للإسلام ودينه ولغته عن طريق مؤلفاتهم الغنية التي دوّنوها فيها، وذلك أمر قد استمرّ في القرون المتأخّرة وخدم الإيرانيون المكتبة العربية الإسلامية بآثار رائعة في جميع الأصعدة العلمية والأدبية.

الأمر الذي لفت انتباه كاتب المقالة أنّ الإيرانيين تجاوزت مساعيهم حدود النّحو والنظم والنثر في القرون الأولى، وبلغت في القرون المتأخّرة آفاقاً بعيدة . رغم ضعف الخلافة الإسلامية . في سائر العلوم الصّعبة كعلم صناعة المعاجم والقواميس لما يتطلّب من صاحبها طول الممارسة وشدة المران. كان الفيروزآبادي أحد هؤلاء العلماء الإيرانيين في القرن الثامن للهجرة إذ خاض ميدان صناعة المعجم وخلص منها بكتاب رائع يعدّ اليوم إحدى المعاجم الشاملة في اللغة العربية وهو «القاموس المحيط».

إنّ «القاموس المحيط» تمثّل مرحلة اكتمال المعاجم في اللغة العربية ويعدّ نخبة المعاجم التي سبقته إذ يقدّم المعنى المعجميّ باختلاف مستوياته لمن يستخدمه. وبعبارة موجزة يمكننا القول أنّ «القاموس المحيط» يعتبر حلقة الاتّصال بين المعاجم القديمة والحديثة إذ قامت على أساسه عديد من المعاجم بعده. ويكفي في مكانة «القاموس المحيط» أن نقول إنّه الوحيد الذي اهتمّ به علماء الإفرنج وترجموه إلى اللغة اللاتينية في إيطاليا سنة 1632م. (يسري عبدالغني، 1991م، ص 210). فهذه المقدّمة وما أشرنا فيها إلى مكانة «القاموس المحيط» دفعتنا أن نكتب بحثنا تحت عنوان «مساهمة الإيرانيين في ازدهار الصناعة المعجميّة في اللغة العربية» بالتركيز على «القاموس المحيط» لنكشف مدى مساهمتهم فيها، ونجيب على الأسئلة الآتية:

1 . ماهي منهجية «الفيروزآبادي» الفريدة في «القاموس المحيط»؟

2 . ماهي الفروق الجوهرية بين «القاموس المحيط» والمعاجم الأخرى قبله؟

3 . هل أثّر لغة الفيروزآبادي الأمّ على «القاموس المحيط»؟

3 . كيف مهّد «القاموس المحيط» الأرضية لتطوّر صناعة المعاجم العربية في العصر الحديث، وكيف أثّر فيها؟

سابقة البحث

والواقع أنّ علماء اللغة وأئمّتها قد وهبوا أنفسهم خدمة للغة العربية من أجل تيسير طرق تعلّمها للنّاس، وحفظ موادّها وأصولها، وتزويدهم بثروة لغوية لا يستهان بها، فكان المعجم بذلك أعظم خطوة في التأليف اللغوي. والقاموس المحيط كان من أهمّ تلك المعاجم، فلذلك قامت حوله دراسات عديدة وألّف العلماء في ذلك كتباً كثيرة تناولته من جهات مختلفة فمنهم من شرحه، ومنهم من نقده، ومنهم من اختصره، ومنهم من دافع عنه. وقد بلغت تلك الدراسات غايتها القصوى في القرن الرابع عشر الهجريّ بزعامة أحمد فارس الشدياق صاحب «الجاسوس على القاموس وسرّ الليال» وأحمد تيمور صاحب «تصحيح القاموس المحيط».

أمّا الدراسات النقدية حوله انحسرت، فهي لاتتجاوز عدّة بحوث موجزة درست بعض جوانبه المعنوية والشكلية. أهمّ تلك البحوث هي:

. «القاموس المحيط للفيروزآبادي، حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996م. أهمّ موضوعات بحث عنها صاحب الدّراسة هو كيفية البحث في القاموس، والخصومة حوله، وأثر الحضارة على المعجم العربي، و لم يناقش عن أثر القاموس المحيط على المعاجم المعاصرة و لم يتحدّث عن أثر الفارسية فيه.

. «معالجة المادة المعجميّة في القاموس المحيط للفيروزآبادي» وهو رسالة الماجستير في جامعة الحاج لخضر للجمهورية الجزائرية. هذه الرّسالة درست مصادر الفيروزآبادي في مؤلّفه، وآلياته في شرح وتفسير المعنى، وطريقة الكشف عن الكلمات فيه. بالرجوع إليها يتّضح أنّها لم تجب على الأسئلة التي طرحناها.

. «دراسات في القاموس المحيط» لـ «محمد مصطفى رضوان» من منشورات الجامعة الليبية، ومع الأسف نحن لم نحصل على هذا البحث وكيفيّة معالجته للموضوع.

بالعودة إلى الدّراسات السّابقة يتضح أنّها لم تناقش غير منهج القاموس المحيط سائر الواضيع التي نحن بصدد الحديث عنه، فيعدّ بحثنا جديداً في كثير من جوانبه.

موجز عن حياة الفيروزآبادي

لا يختلف اثنان في أنّ الفيروزآبادي يحمل جنسية إيرانية؛ غير أنّ الذين ترجموا له اختلفوا في مسقط رأسه، فذكر صاحب كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» أنّه ولد بشيراز (الفاسي المكي، 1986م، جـ 2/ 392) وذهب مؤلّف «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» أنّه ولد «بكازرون من أعمال شيراز». (السخاوي، 1992م، جـ 10/ 79) ويكاد يتفق المؤرخون أنّه ولد في سنة 729 للهجرة، وتوفّي سنة 817 للهجرة في مدينة زبيد.

عاش الفيروزآبادى في حقبة تاريخية تندرج فيما عُرف لدى بعض الدارسين بعصور الانحطاط وهي مرحلة بدأت باستيلاء المغول على بغداد سنة 656 للهجرة وقضائهم على الخلافة العباسية فيها.

نشأ الفيروزآبادي في أسرة علميّة؛ كان أبوه من علماء مدينة شيراز، فأثّر ذلك في نشأته إذ «حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وأخذ عن والده وعن القوّام عبدالله ابن النجم وغيرهما من علماء شيراز». (السخاوي، جـ 10/ 79). كان مشغوفاً بالعلم والدراسة والحفظ، وهذا يتّضح مما ذكره ابن حجر العسقلاني على لسان الفيروزآبادي أنّه «كان يقول: ما كنت أنام حتّى أحفظ مائتي سطر». (العسقلاني، 1986م، جـ 9/ 162).

زار الفيروزآبادى كثيراً من البلدان الإسلامية طلباً للعلم خاصّة العلوم اللغوية والأدب مثل شيراز، والعراق، وبلاد الشّام، والقاهرة، ومكة المكرمة، وبلاد الروم، والهند واليمن على التّوالي. (انظر: السّخاوي، جـ 10/ 79) وربّما تكون بغداد أغنى مدينة وأخصبها في تحصيله العلميّ إذ كانت تمتزج فيها ثقافات شتّى وكانت مكتباتها زاخرة بالكتب والمؤلّفات في كافّة الفنون والعلوم. وتجدر الإشارة أنّ القاموس المحيط تمّت كتابته في مكة المكرمة كما يظهر من خاتمة القاموس قائلاً: «وقد يسّر الله تعالى إتمامه بمنزلي على الصّفا، بمكة المشرفة تجاه الكعبة المعظّمة زادها الله تعالى تعظيماً وشرفاً».

القاموس لغة واصطلاحاً

عرفت اللغة العربية في تاريخها الطويل جهوداً كثيرة اعتنت بدرس جوانبها المتشعبة، وقد تألّفت من تلك الجهود مكتبة لغوية ضخمة باتّجاهاتها وأنماطها. كانت المعاجم والقواميس إحدى النشاطات المكثّفة التي اضطلعت علماء هذه اللغة بإرساء قواعده الفنية وفق مناهج مختلفة.

يختلف الباحثون في جذر «القاموس» فذهب المستشرق الإنجليزي هيوود Haywood إلى أنّ لفظة «قاموس» تحريف للفظة اليونانية «أقيانوس» Okeanos (هيوود، 2004م، ص 153) في حين يرى الباحثون العرب أنّه في الأصل مصرية انتقل إلى

اليونانية ثمّ منها إلى العربية. ووقع تعريب اللفظ بـ «أقيانوس» واستخدمه العرب بعد بطليموس بمعنى «الكتلة السائلة» التي تحيط بالأرض، أو بالأخص المحيط الأطلسي الذي عرف ببحر أقيانوس المحيط، ثمّ القاموس المحيط وهو التعبير الذي استعمله على سبيل الاستعارة الفيروزآبادي. (انظر: العواضي، 1999م، ص 15. 16).

تعددت تسميات القاموس، لكنّ أرسخها وأكثرها تداولاً هي «القاموس المحيط»، فأورد الفيروزآبادي في مادّة «قمس» أنّها تعني «الغوص» وأنّ القاموس هو «بئر تغيب فيها الدلاء من كثرة مائها، أمّا القاموس فهو معظم ماء البحر». (الفيروزآبادي، مادة قمس». ويلمح هنا العلاقة بين الإسم والهدف من القاموس، وهو الإحاطة باللغة. فالقاموس المحيط يماثل البحر في سعته، ونعته بـ «المحيط» يؤيّد معنى السّعة والشّمول. (انظر: السامرائي، 1998م، ص 526).

وزاحمت لفظة القاموس مصطلح «المعجم» لكثرة تردد القاموس المحيط على ألسنة الباحثين، فظنّ بعضهم أنّه مرادف لكلمة معجم فاستعملوه بهذا المعنى حتّى شاع هذا الاستعمال وصار يطلق لفظ قاموس على أيّ معجم. (انظر: أحمد مختار، 1978م، ص120).

بواعث وضع القاموس المحيط

تكشف مقدّمة «القاموس المحيط» عن فكرة الفيروزآبادي وأغراضه من تصنيفه لذا المعجم، ونراه قد استهلّه بتحميد طويل، كما أنّه تحدث عن مكانة اللغة العربية وعظمتها فأرجع ذلك إلى نزول القرآن بها، وأخيراً أشاد بدور علماء العربية السّابقين. يظهر من خلال دراسة المقدّمة أنّه كان يهدف من تصنيفه إلى غرضين رئيسين، وهما:

أ . **استدراك معايب «صحاح الجوهري»**: من المؤكد أنّ الشّهرة التي نالها كتاب «الصّحاح» في الأوساط الأدبية والنقدية واللغوية هي من الدوافع التي حثّت الفيروزآبادي الشيرازي على تأليف «القاموس المحيط» على منوال ما صنع الجوهري في صحاحه. والفيروزآبادي نفسه يعترف بفضل الصّحاح ويقرّ بمكانته فيقول: «ولمّا رأيتُ إقبال النّاس على صّحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنّه فاته نصفُ اللغة أو أكثر، إمّا بإهمال المادّة أو بترك المعاني الغريبة النّادرة، أردت أن يظهر للناظر بادىء بدء فضل كتابي هذا عليه، فكتبت بالحُمرة المادّة المهملة لديه». (الفيروزآبادى، 2005م، ص 27). فيبدو من خلال رؤية الفيروزآبادى أنّ الباعث الأوّل له بوضع القاموس المحيط هو استدراك ما فات الجوهري من تتبّع الموادّ اللغوية؛ هذا الكتاب تفوّق على الصّحاح بعشرين ألف مادّة، ذلك أنّ مادّة الصحاح لا تزيد عن أربعين ألف مادّة، كما لا تتعدّى مادّة القاموس ستّين ألف مادّة، وهذا التفاوت مبرّر له.

ب . **البحث عن كتاب جامع في فصيح اللغة وشواردها:** يتّضح من مقدّمة «قاموس المحيط» أنّ صاحبه كان يبحث عن كتاب في اللغة يحيط بفصيحها وغريبها. يقول: «كنت برهة من الدّهر التمس كتاباً جامعاً بسيطاً ومصنفاً على الفصح والشّوارد محيطاً، ولمّا أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع...» غير أنّه انصرف عن كتابة اللامع، والتمس تقديم كتاب موجز مع مراعاة الإيجاز والإحكام في معجمه الموسوم بالقاموس المحيط.

فروق «القاموس المحيط» والمعاجم قبله

لقد استطاع «القاموس المحيط» أن يلفت انتباه الدارسين ويصرف النّاس إليه إن صحّ التعبير عن كتاب الصّحاح، وذلك لاشتماله على ميّزات في غاية الأهمية وهي: سعة مادّته وقوّة استقصائه، الاختصار في الشّرح، تنظيم مادّته، فأصبح منذ ظهوره الكتاب الأوّل في حلّ القضايا اللغوية. بالرجوع إلى «القاموس المحيط» نلاحظ ظاهرتين مهمّتين فيه:

1 . الانتظام في الترتيب الداخلي للمواد:

يتمثّل الترتيب الداخلي في تقدّم الصيغة والإتيان بمعانيها كلّها عقبه بالمرّة الأولى، ولا يعود الفيروزآبادي إليها مرّة ثانية في المادّة بل ينتقل إلى غيرها، فتخلّصت المواد بهذا الشكل المنتظم من التشتّت الذي يرغم الباحث على قراءة المادّة كلّها كي يحصل على معاني الصيغة التي يريدها كلّها. إنّ القاموس المحيط «استطاع أن يصرف الناس بعده عن كتاب «الصّحاح» لأنّهم رأوا فيه محاولة

للجمع بين ثلاثة عناصر هامّة هي: استقصاء المادّة، والاختصار في الشّرح، والدقة في التنظيم، فأصبح منذ ذلك الوقت هو الكتاب المعوّل عليه في حلّ مشاكل اللغة». (ظبيان، 1976م، ص 33).

ومن مظاهر الانتظام في الترتيب في معالجة الموادّ ميل الفيروزآبادي في كثير من الأحيان إلى تأخير الأعلام أشخاصاً كانوا أو قبائل أو مواضع إلى آخر موادّه. فالأعلام من الممكن الاستغناء عنها في المعاجم اللغوية دون شعور بنقصها ولكن إن كان لابدّ من ذكرها فالأجمل تأخيرها ولا شك، فخطرها قليل في كشف القناع عن المادّة وصيغها. (انظر: نصّار، 1968م، جـ2، ص 589). والبيان الموجز عن هذه الميزة هو أنّ الفيروزآبادي فصل معاني كلّ صيغة عن زميلتها في الاشتقاق وقدّم الصيغ المجردة على الصيغ المزيدة كما أنّه أخّر ذكر الأعلام، وبهذا جاء قاموسه في نهاية الإيجاز والاختصار.

2 . الانتظام في علاج الصيغ:

يتمثّل الانتظام في علاج الصيغ في رغبة الفيروزآبادي في استكمال زوايا الصيغ التي يذكرها فإذا كانت الصيغة فعلاً ذكر ماضيها ومضارعها ومصدرها مثل: «هاجَ يَهيجُ هيجاً وهيجاناً وَهياجاً: ثارَ». وإذا كانت الصيغة اسماً ذكر جمعها بل جموعها وجموع جموعها أحياناً وذكر مفردها ومذكرها ومؤنّثها أيضاً مثل: «الكأس: الإناء يُشرَب فيه، أو ما دامَ الشّراب فيه، مؤنثة مهموزة، والشّراب ج: أكؤسٌ وَكؤوسٌ وكأساتٌ وَكئاسٌ». فهذ الأمر وما قبله يميّزان القاموس المحيط عن بقية المعاجم العربية.

ميزات القاموس المحيط

1 . الترتيب حسب أواخر الأصول

لعلّ أهمّ ظاهرة ميّزت «القاموس المحيط» عن باقي المعاجم هي طريقة عرضه للجذر المعجميّ. إنّ الفيروزآباديّ ذكر في البداية المدخل الفرعيّ مكان المدخل الرئيس، وبذلك سلك طريقة مغايرة للمعجميين السّابقين. نقارن ههنا طريقة عرض مادّة «شرع» بين القاموس المحيط، وتاج اللغة وصحاح العربية، ولسان العرب، وتاج العروس حتّى يتبيّن مدى الفرق بين هذه المعاجم التي تنتمي إلى مدرسة التقفية:

القاموس المحيط: «الشّريعة: ما شرع الله تعالى لعباده، والظاهر المستقيم من المذاهب». كما يبدو واضحاً أنّ الفيروزآبادي لم يفتتح المادّة مباشرة بجذر المادّة خالية من الزوائد بل أتى بمدخله الفرعيّ وهو كلمة «الشّريعة» ويعتبر ذلك خروجاً عن سنّة المعجميين الأولين.

الصحاح: «شرع: الشريعةُ: مشرعة الماء، وهو مورد الشّاربة. والشّريعة: ما شرع الله لعبادهِ من الدّين». نلاحظ أنّ الجوهري ذكر في البداية الأصل المعجميّ بدون الزوائد ثمّ أتى بالمداخل الفرعية التي تلحق به.

لسان العرب: «شرع: شَرَعَ الوَارِدُ يَشرَعُ شَرعَاً وَشُروعاً: تناولَ الماءَ بِفيه». إنّ ابن منظور افتتح كصاحب الصّحاح بالأصل المعجميّ وذهب نفس المذهبِ غير أنّه ذكر المضارع والمصدر المجردينِ ثمّ أتبع ذلك بذكر المداخل الفرعية.

تاج العروس: «شرع: الشّريعةُ: ما شَرَعَ الله تَعالى لِعبادِهِ من الدّينِ». والزبيدي كذلك التزم بمنهج الصّحاح ولسان العرب، وقدّم الجذر على الفروع والمداخل الفرعية ليسهل الأمر على الباحث.

1 . التركيز على المعنى:

كان الفيروزآبادى قد أظهر عنايته بالمعنى، فنصّ في مقدمة القاموس المحيط على التزامه بإتمام المعنى ليخرج قاموسه في «عمل مفرَغ في قالب الإيجاز والإحكام مع التزام إتمام المعاني». وفي موضع آخر من المقدمة ألحّ الفيروزآبادي على عنايته بتقريب العبارة وإبلاغ المعاني الكثيرة بأقلّ الألفاظ، إذ أورد: «إذا تأمّلت صنيعي هذا وجدته مشتملاً على فرائد أثيرة وفوائد كثيرة، من حسن الاختصار وتقريب العبارة وتهذيب الكلام وإيراد المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة». بهذا يتضح بشكل جليّ عناية الفيروزآبادي بالمعني المعجميّ وحرصه على تقديم المعنى في قالب الإيجاز والإحكام. فقد ألزم نفسه إتمام المعنى، وهذا يقتضي أن يكون دقيقاً في ذلك. كما يشير الفيروزآبادي إلى مسلكه في تقديم المعنى على نحوموجز بإيراد المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة.

2 . العناية بالمفردات الدّخيلة

يشتمل القاموس المحيط على كثير من المفردات الدّخيلة من اللغات الفارسية، والنبطيّة، والحميريّة، و... وتكون المفردات الفارسية أكثر حضوراً فيه لأنّها لغة المؤلّف الأولى، ولغة أمة خالطت العرب قبله، ولغة أدب وحضارة كانا مطمح الأنظار حقباً طويلة. وربّما يكون الفيروزآبادي قد استمدّ هذه الألفاظ من كتب الحكمة والطبّ كمؤلّفات ابن سينا والرازي وابن البيطار وغيرهم. (انظر: رضوان، محمد مصطفى، دراسات في القاموس المحيط، ص 239).

3 . حضور المفردات الطّبية والفلسفية و... فيه

نرى صاحب «القاموس المحيط» قد وسّع من دائرة مفردات قاموسه بالدّخول في ميدان العلوم والفلسفة والفقه والطبّ و...، إذ اعتمد الفيروزآبادي على كتب الأطباء والجغرافيين والحكماء والفلاسفة، فنجد في قاموسه مصطلحات طبيّة وفلسفية كثيرة، فكان ذلك الأمر خروجاً عن القاعدة التي اتّبعها أغلب أصحاب القواميُ الذين سبقوه، إلا أنّ نزعته إلى الايجاز قد جعل إفادته من العلوم الطبية والفلسفية محدوداً. على سبيل المثال ذكر في مادّة «رقب»: والرُّقبى كبُشرَى: أن يُعطِيَ إنسَاناً مِلكاً، فأيّهما ماتَ رَجَعَ المِلك لِوَرَثتِهِ، أو أن يَجعَلَهَ لِفَلانٍ يَسكنُه فَإن مَاتَ فَفُلانٌ. وقد أرقَبَهُ الرّقبى، وأرقَبَهُ الدّارَ: جَعَلها لهُ رقبى. (انظر: الفيروزآبادي، ص 90، ذيل مادة «رقب»). كما أنّه ذكر في مادّة «صرع» قائلاً: «علّة تَمنَعُ الأعضاءَ النفيسة من أفعالِها منعَاض غيرَ تامٍّ، وسَبَبُهُ سُدّة تَعرُضُ في بعضِ بطونِ الدّماغ، وفي مجاري الأعصابِ المُحرِّكة للأعضاءِ من خِلطٍ غَليظٍ أو لَزجٍ كثيرٍ، فتمتَنِع الرّوحُ عن السّلوك فيها سُلوكاً طبيعيّا فَتَتَشنّجُ الأعضاء». (الفيروزآبادي، ص 737، ذيل مادة «صرع»).

لو نلاحظ دلالة هذه الموادّ نجد أنّ أكثر أهل اللغة وأصحاب المعاجم لم يتعرّضوا لها.

4 . حضور الأعلام فيه:

إنّ القواميس والمعاجم التي أُلّفت قبل «القاموس المحيط» لم تكن تخلو من ذكر الأعلام، لكنّ نسبتها لم تكن تشكل ظاهرة تستحقّ الوقوف عندها بل كانت ضيئلة في المقارنة بالموادّ اللغوية الأخرى الموجودة في أىّ قاموس قديم. أمّا «القاموس المحيط» فقد ورد فيه ما يقارب ألفاً وأربعمائة علم إنساني وجغرافيّ ممّا تسبّب أن ينتقده بعض المتأخّرين لخروجه عن المألوف في القواميس التي سبقته. (انظر: الودغيري، 1989م، ص 232). على سبيل المثال ذكر الفيروزآبادي في مادّة «حب» كثيراً من الأعلام مثل: حبيب بن حبيب أخو حمزة الزّيات، حباحب، حبّان: وادٍ باليمن، الحباب بن المُنذر، الحُبابية، حَبّوبة. (انظر: الفيروزآبادي، ص 73.70، ذيل مادة «حب»).

أثر القاموس المحيط على صناعة المعاجم في اللغة العربية المعاصرة

واجه القاموس المحيط بعد صدوره بترحيب بالغ من جانب العلماء وانتشر انتشاراً واسعاً. والباعث الأوّل لذلك أنّ صاحبه جمع فيه محاسن المعاجم التي سبقته كـ «المحكم» لابن سيدة، و «العباب» للصاغاني. والباعث الثاني أنّ «القاموس المحيط» ذو حجم يسهل استنساخه وتداوله، وهو يخفّ أمره على المدرسين إذا تناولوه. هذه المميّزات جعلت من «القاموس المحيط» نبراساً للمتأخرين لكي يحاكوه مثل الزبيري في معجمه «تاج العروس من جواهر القاموس» الذي اتّخذه منطلقاً له. هذا الأمر مازال استمرّ حتّى العصر المعاصر، فنرى بطرس البستاني قد جعله أساساً لمعجمه المسمّى «محيط المحيط»، وقد سمّاه البستاني بهذا الاسم لأنّه احتوى ما في محيط الفيروزآبادي.

أهمّ ما أثّر القاموس المحيط على «محيط المحيط» للبستاني عبارة عن:

أ . الاعتماد على مادّة القاموس المحيط:

يقول البستاني في مقدّمة معجمه: «أمّا بعد، فهذا المؤلّف يحتوي على ما في محيط الفيروزآبادي من مفردات اللغة وعلى زيادات كثيرة... فقد أضفت إلى أصول الأركان فيه فروعاً كثيرة وتفاصيل شتّى وألحقتُ بذلك اصطلاحات العلوم والفنون، وكثيراً من

القواعد والشّوارد وغير ذلك، مما يتعلق بمتن اللغة، وذكرت كثيراً من كلام المولدين، وألفاظ العامة، منبّهاً في أماكنها على أنّها خارجة عن أصل اللغة». (البستاني، 1998م، ص 1).

فمن خلال هذا القول الذي صرّح به البستاني في مقدمة «محيط المحيط» يمكننا أن نقف على أهمّ جانب من جوانب التقليد في معجمه وهو التقليد في المادّة التي قال عنها أنّ معجمه يحتوي على كلّ ما جاء في قاموس المحيط، وحتّى نرى بعض الباحثين يعدّ معجمه بسبب هذا الاعتماد من المعجمات التي أعادت ترتيب المعجمات القديمة (انظر: أحمد مختار، ص 218).

نذكر ههنا ما ذكره «القاموس المحيط» و «محيط المحيط» ذيل مادّة «لمع» حتّى نرى مدى تأثّر البستاني بالفيروزآبادي. جاء في «القاموس المحيط»: «لَمَعَ البَرقُ، كمَنَعَ، لَمعاً وَلَمَعاناً، محرّكة: أضاءَ، كالتَمَعَ، و. بالشيء: ذَهَبَ، وَ. بيدِهِ: أشارَ، و. الطائرُ بجناحيهِ: خَفَقَ، و. فلانٌ البابَ: بَرَزَ منهُ. واللّماعةُ، مُشدّدةً: العُقابُ، والفَلاةُ يَلمَعُ فيها السّرابُ، ويافوخُ الصبيّ مادامَ ليناً، كاللامعةِ. واليَلمَع: البرقُ الخَلّاب، والسّرابُ، ويشبّهُ به الكذّابُ. والألمعُ والألمعيُّ واليلمَعيُّ: الذكيُّ المُتوقّدُ. واليلامِعُ من السّلاح: ما بَرقَ، كاليَيضَةِ. والألمعيّ واليلمعيّ: الكذّاب. واللمعةُ، بالضم: قطعةٌ من النّبتِ أخذت في اليُبسِ، ج: ككتاب، والجماعةُ من النّاس، والموضعُ لا يصيبُه الماء في الوضوءِ أو الغُسل، والبلغةُ من العيش، و. من الجَسد: بريقُ لونه. وملمعا الطائر، بالكسر: جناحاه. وألمعَ الفرسُ، والأتانُ، وأطباء اللّبوءة: إذا أشرفَ للحمل، واسودّت الحلمتان، و. الشّاة بذنبها، فهي مُلمعة وملمع: رفعته ليعلم أنّها قد لقحت». وجاء في «محيط المحيط»: «لمَعَ البرقُ وغيره يلمَعُ لمعاً ولمعاناً أضاء. وفلانٌ بالشيء ذهبَ به. وبيده أشار. والطّائرُ بجناحيهِ خفق بهما. وزيد الباب برز منه* ألمعت الفرس والأتان وأطباء اللبوءة أشرفت ضروعها للحمل واسودّت الحلمتان والشاة بذنبها رفعته ليعلم أنّها قد لقحت فهي ملمعة وملمع. والأنثى تحرّك الولد في بطنها. وفلان بالشيء وعليه اختلسه. والبلاد صارت فيها لمعة من النّبت. وإليه بثوبه أشار وتلمّع الشيء والنعمة اختلسه. والتمع البرق وغيره أضاء. ولونه ذهب وتغيّر* اللمع اسم الفاعل ج لمّع * اللامعة مؤنث اللامع ويافوخ الصبيّ ما دام لبناً ج لوامع».

إنّ معظم الدلالات التي جاء في «المحيط المحيط» هو نفس الدلالات التي يوجد في «القاموس المحيط» وقد كرّره البستاني مع اختلاف طفيف في طريقة الشّرح والترتيب. بعبارة أخرى أنّ البستاني حاكى الفيروزآبادي في تناول المادّة المعجمية إلا في حسن الترتيب والتبويب، وأضاف بعض دلالات جديدة التي اقتضاها العصر الحديث.

اتخذ البستاني من القاموس أساسا لمادة معجمه، وحذف أسماء الأماكن والأشخاص والقبائل والمشتقات القياسية وبعض اللغات، وصاغ التفسيرات صياغة تلائم روح العصر الحديث وأضاف غير قليل من المعاني المولدة والمسيحية والعامية والمصطلحات العلمية والفلسفية. والجدير بالذّكر أنّ البستانيلم يقبل نفس ترتيب الفيروزآبادي، بل غضّ عن ترتيب المفردات على ترتيب القافية، وعاد إلى تثبيت النظام الالفبائي حسب الأوائل مع التجريد، لكنّه اعتمد على مادّه «القاموس المحيط» التي حافظ فيها على عباراته في تفسير كثير من الألفاظ.

ب . ترتيب الموادّ المعجميّة

وتقليد البستاني من «القاموس المحيط» يتجلّى أيضاً في طريقة ترتيب الموادّ المعجمية، إذ يقول: «وقد اخترت في ترتيبه اعتبار أوّل حرف من الكلمة دون الأخير منها بخلاف اصطلاح الجمهور لأنّ ذلك أيسر في التفتيش عليها» (البستاني، ص 2). وعن طريقة البحث فقال: «إن شئت كشف لفظة، فإذا كانت مجردة فاطلبها في باب أوّل حرف منها، وإذا كانت مزيدة فجرّدها أوّلاً من الزوائد ثم اطلبها في باب الحرف الأوّل ممّا بقي وإذا كان في الكلمة حرف مقلوب عن آخر فاطلب تلك الكلمة في مكان الحرف الأصلي المقلوب عنه، وكلّ ذلك يسهله الاستعمال والممارسة واعلم أنّ ج مقطوعة من جمع» (نفس المصدر، ص 2). وهكذا يكون البستاني قد رتّب الألفاظ على حسب حروفها الأصول وحدها كما فعل القدماء، كما قام أيضاً في ترتيبه للألفاظ تميّز الأفعال عن الأسماء وميّز أيضاً بين المجرّد منها والمزيد.

أمّا معجم «أقرب الموارد في فصح العربية والشّوارد» لسعيد الخوري الشرتوني يعدّ من أكبر المعجمات الحديثة؛ وقد صرّح صاحبه في مقدّمة معجمه بالمصادر التي استفاد منها في جمع المادّة المعجمية وهي تتمثّل في «لسان العرب» لابن منظور، و «أساس البلاغة» للزمخشري، و «الصّحاح» للجوهري، و «القاموس المحيط» للفيروزآبادي. (انظر: الشرتوني، ص 3) غير أنّه صرّح أيضاً أنّ «القاموس المحيط» يشكل المصدر الرئيس الذي يعدّ «عماداً له، ثمّ أجرى عليه تغييرات» (نفس المصدر، ص 3). والشرتوني فقد غيّر ترتيب الألفاظ في داخل الموادّ، وتصرف في بعض العبارات بحيث وضّحها واستبدل بعض الألفاظ بأخرى، وكان هذا التّصرف خاصّة في التعريفات الدورية، وحذف البقاع والأعلام والأدوية، ومعظم العبارات التي كان الفيروزآبادي يضبط بها الألفاظ والمشتقات القياسية، وبعض الموادّ والصيغ والمعاني.

يتخلّص التقليد في «أقرب الموارد» في اعتماده على مادته على القاموس المحيط ومحافظته على عبارات الأقدمين ووقوفه على كلامهم، كما أخذ عنهم أيضاً طريقة ضبط الكلمات بالنّص لا بالقلم.

والكلام الأخير أنّ المعجمات التي ألّفت منذ عصر النهضة تتصف باعتمادها على ما جاء في المعجمات القديمة خاصّة القاموس المحيط.

أثر الفارسية في القاموس المحيط

تحدّثنا في مقدمة البحث أنّ الفيروزآبادي كان من علماء إيران، فطبيعيّ أن نجد وطأة لغته الأمّ في قاموسه. إنّ الحضور الفارسي في القاموس المحيط سار في ثلاثة جوانب:

أ . ذكر الأعلام الفارسية

نجد أحياناً كثيرة أنّ الفيروزآبادي ذكر الأعلام الفارسية بما فيها الأشخاص والمدن والقرى و... وهذا يدلّ على سعة اطّلاعه ومدى معرفته بموطنه. على سبيل المثال ذكر ذيل مادّة «الشّرماح» أنّه قَلعةٌ قُربَ نَهاوند. (انظر: الفيروزآبادي، ص 226). كما أنّه ذكر مفردات أخرى كـ «الشاذياخ: اسم نيسابور»، «بافدُ: بسكون الفاء بلد بِكرمان، مُعرّب: بافت»، و «زندرود: نَهرُ أصبهان» (ص 258). وأحياناً تجاوز الفيروزآبادي عن ذكر الأعلام وتطرّق إلى إصلها كما ذكره في «نهاوند: بلد من بلادِ الجبل جنوبيّ همذان، أسله: نوح آوَند، لأنّه بناها أو أصله: إينَهاوند» (ص 323). وهذه الأعلام كثيرة فيها بحيث لا تعدّ ولا تحصى.

2 . المفردات الفارسية الدّخيلة

هناك آلاف مفردات دخيلة فارسية في القاموس المحيط ذكرها الفيروزآبادي بعينه دون تعديل في صيغته أو إجراء تعديلات فونطيقية فيها، وهي كثيرة جدّاً تفوق الحدّ. فنستشهد ببعض منها حتّى يلاحظ القارىء مدى حضور المفردات الفارسية فيه. منها: «السّمند: الفرس، فارسية» (الفيروزآبادي، ص 289)، «القَند: عسل قصب السّكر إذا جَمُد: فارسية» (ص 312)، «الزّمرّد: الزَّبرجَد، فارسية» (ص 333)، «أناهيذ: اسمُ الزّهرة: فارسيّ» (ص 339)، «الجلّنار: زهر الرّمان: فارسية» (ص 367)، «الدّشت: الصّحراء» (ص 151).

2 . الإشارة إلى أصل المفردات المعرّبة

ذكر الفيروزآبادي في قاموسه كثيراً من المفردات المعرّبة خاصّة من الغات الفارسية والتركية والكردية. غير أنّ نسبة المفردات الفارسية تزيد على غيرها من اللغات، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أثر الفارسية في جمع مادّة القاموس، واطّلاعه الواسع على مفردات لغته الأمّ. نذكر من بينها: «دُمّل: طائرٌ فارسيّته: دوبرادران»، «الزّنفيلَجَةُ: معرّب زَن بِيله»، «السَّبَنجونة: معرّب آسمان گون»، «السّاذج: معرّب ساده»، «السُّنباذَج: سنباده»، «الشَّافافَج: نَبت، معرّب: شابابَك»، «الشَّهدانِج: شاهدانج»، «الطّازج: تازه»، «الفَنزَج: رقص للعجم يأخذ بعضهم بيد بعض. معرّب: پَنجه»، «الكندوج: شِبه المَخزن، مُعرّب: كندو»، «النّارنج: ثمرٌ، معرّب: نارنك». (انظر: الفيروزآبادي، ص 210.192).

وجدير بالذّكر أنّ الفيروزآبادي قد غيّر بعض أصوات الألفاظ الفارسية عند تعريبها أي أجرى بعض استبدالات فونطيقية، كـ«الإسفاناخ» الذي هو معرّب «إسفناج» الفارسية وهو نبات فيه قوّة جالية غسّالة ينفع الصّدر والظّهر. (ص 252).

نتائج البحث

إنّ «القاموس المحيط» للفيروزآبادي الإيراني من أهمّ القواميس اللغوية في الأدب العربي، وهو لايزال يلقى ترحيب العلماء والباحثين بجمعه مادّة غنيّة. هذا القاموس يفوق المعاجم الأخرى باختصاره واستدراك ما كان في المعاجم قبله، وبانتظام في الترتيب الداخلي للموادّ، والانتظام في علاج الصيغ، كما أنّه أثّر في المعاجم التي ألّفت في عصرنا الحديث مثل «محيط المحيط» للبستاني، و «أقرب الموارد في فصح العربية والشّوارد» لسعيد الخوري الشرتوني. والحضور المكثّف للأعلام والمفردات الدّخيلة والمعرّبة من الفارسي من ميزات القاموس المحيط وذلك يدلّ على أنّ الفيروزآبادى قد تأثّر بلغته الأمّ خاصّة عندما يذكر أصل المفردات المعربّة، وهذا يميّزه عما كان قبله من المعاجم.

المصادر والمراجع

1 . ايرواني زاده، وشاملي. (1388ش). الأدب العربي والإيرانيون من بداية الفتح الإسلامي إلى سقوط بغداد. ط1. سمت. تهران.

2 . البستاني، بطرس. (1998م). محيط المحيط قاموس مطول اللغة العربية. طبعة1. مكتبة لبنان. بيروت.

3 . رضوان، محمد مصطفى. (1972م). دراسات في القاموس المحيط. منشورات الجامعة الليبية. كلية الآداب.

4 . السامرائي، إبراهيم. (1998م). في الصناعة المعجمية، ط1. دار الفكر لنشر والتوزيع، عمّان . الأردن.

5 . السخاوي، محمد بن عبدالرحمن.(1992م). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. دار الجيل. بيروت . لبنان.

6 . ظبيان، نشأة. (1976م). حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشّام. دار التقدم. دمشق.

7 . العسقلاني، ابن حجر. (1986م). إنباء الغمر بأنباء العمر. دار الكتب العلمية. بيروت.

8 . العواضي، حميد مطيع. (1999م). المعاجم اللغوية المعاصرة قضاياها النظرية والتطبيقية. ط1. مؤسسة العفيف الثقافية.

9 . عمر، أحمد مختار. (1978م). البحث اللغوي عند العرب، ط3. عالم الكتب. القاهرة.

10 . الفاسي المكي، محمد بن أحمد الحسنى. (1986م). العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. ط2. مؤسسة الرسالة. بيروت . لبنان.

11 . الفيروزآبادى، محمد بن يعقوب. (2005م). القاموس المحيط. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. ط8. بيروت.

12 . نصّار، حسين. (1968م). المعجم العربي نشأته وتطوّره. ط2. مكتبة مصر.

13 . الودغيري، عبدالعلي. (1989م). قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، ط1. منشورات عكاظ.

14 . هيوود، جون. (2004م). المعجمية العربية . نشأتها ومكانتها في تاريخ المعجميات العام. ترجمة: عناد غزوان. منشورات المجمع العلمي.

15 . يسري عبدالغني، عبدالله. (1991م). معجم المعاجم العربية. ط1. دار الجيل. بيروت.